الصبر ضياء

من جوامع كلم رسـول اللّه صـلى اللّه عليه وسـلم، وروائع بيانه الخارج من فمه الشريـف صـلى اللّه عليه وسـلم وعلى آله، وبدائع هداياته في مقالاته العاصمة المسددة المُرَشِّدة، قوله عليه السلام فيما صَحّ عنه من حديث أبي موسى الأشعري: «الصّبرُ ضياءٌ».

عبارة جـامعـة لحقـائقَ بـديعـة ورائعـة، تقول بلغة البيان المعجز، إنَّ حُروف 'ألم' تكمن في حروف 'أمل'، في إشارة إلى أن اليسـر ساكن في العسر، وهو معه، {إنَّ مَعَ العُسـرِ يُسْـراً}، والصبر هو نفسه ضياءٌ ونورٌ وفَرَج، وليس فقط سببا لذلك. إذا مـا صبرت بشرط فأنت على موعد مع الضياء والفَرَج، والنصر.

الصـبر حبس النفس على المكاره من أجل نيل المكارم، وقد قال صـلى اللّه عليه وسـلم وعلى آله: «حُفَّت الجَنة بالمكاره»، ومادامت كذلك فالطريق إليها هو الصبر، والصبر وحده !

الصـبر -معاشر الصـالحين- فضـيلة باتفاق، وحاجة المؤمن إليه ليبنيَ عليه من ألحّ الحاجات وأشـدها، فهو سـاق الأعمال كلها، وقد بَوَّأه القرآن مقاماً علياً حين أحَلَّه محل الإيمان، وسـدَّ مسـده في قوله تبارك وتعالى في سورة هود، وهي آية وحيدة وواحدة لافتة، {إلَّا الَّذينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَات أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}، ومُعتادنا في نصـوص الكتاب {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}.

فحاجة المؤمن إلى الصبر ليُقيم عليه أعمـاله وآماله وليوطن نفسه على إحتمال المكاره دون ضـجر، وانتظـار النتـائج دون كـدر، وأن يواجـه الأعبـاء موفور الثقـة بادي الثبات، لا يرتاع بالغيوم ولو تلَبدت، بل يرمق بوادر الصـفاء والنور من خلالها مَهما إسـوَدَّت، علما منه بأن الابتلاء من شـؤون اللّه العلي، في قوله تبارك وتعالى :{ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ}. وبين عيني المؤمن قول العارفين 'وخَفَّف عني البلا، علمي بأنك المبتلي'. وذلك من ربنـا لطف بالغ، حتى يأخذ النـاس أهبتهم لمُنـازلـة الإبتلاء، وهو تعـالى لم يدَعهم نَهباً للإبتلاء، ولكن حفَّهم بألطافه التي هي مَددُ الرجـاء في قوله تعالى {وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ}، فمتى تذكرت {وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ} فاقرأ معها وتذكر {وَمَا كُنَّـا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ}. وأخرى ضمن البَشرى في قوله تعالى {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}.

ولا يخفى على مؤمن عاقل أن لقاء الأحداث بإستعداد سابق هو من صفات الحكماء، وهو الذي يكمن فيه سر التحكم في قيادة الأزمات ومواجهتها، وفي الأدنى وبالأقل الثبات في مواجهتها ومصارعتها، يقول تعالى {وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}، أي مما تُعزم به الأمور وتُجمع به أسبابُ النُّجح والفوز فيها، إذ العزم الأخذ بالأسباب كما في قوله سبحانه وتعالى {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّه}، أخذتَ بالأسباب فتوكل على الله في إثمارها.

أخي المؤمن، إنَّ الصبر لا يجيء من فراغ، بل هو ثمرةٌ لغرسٍ فائق، إسمه اليقين، وهو ثمرة شجرة اليقين، ولذلك يُذكر معه أو ما في معناه في كثير من موارد الذكر، اسمع لقوله تبارك وتعالى :{ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}. الصبر لا يجيء إلا من يقين، أو ما هو بمعناه كالتقوى، في قوله تعالى {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللّه لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}، والتقوى ترجع لإمتلاء الصدر بقيم اليقين في عدالة الله، والأمل في فَرَجه، وأنه لا عَبَث في قَدَره جل في علاه.

كما أن الصبر ينبع من اليقين بحقيقتين اثنتين، الحقيقة الأولى تتعلق بطبيعة الدنيا التي نعيشها وخُلقنا فيها للكدح والابتلاء، فهي دار تمحيص، والمؤمن كغيره مُعَرَضٌ فيها لحلقات موصولة من الابتلاء، يخرج من امتحانٍ ليدخل إلى إمتحانٍ آخر، كما المعدن، يُصهر بالنار أولاً ثم يُلقى في الماء ثانيا، يقول تعالى { وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً، وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} أي للجزاء. وهذا نبي الله سليمان عليه السلام أحد الهداة، وقد أوتي مُلكاً عظيماً، يستحضر هذه الحقيقة معلنا عنها ومذكرا نفسه بها، في لحظة استقباله لفضل الله وعطائه وذلك حتى لا يغتر بما فتح عليه من أسرار الملك، {قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ، وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}.

ومادامت الحياة إمتحانا قَدَرياً، فَلتُوجّه الجهود في اتجاه احراز الفوز في هذا الإمتحان، إن لم يكن بإمتياز فعلى الأقل بما يصون الجهد عن مصير الخُسر المنَبه عنه في قوله تبارك وتعالى {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأخْسَرِينَ أَعْمَالا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا}، إن قول ربنا تبارك وتعالى {لَقَد خَلَقنَا الإِنسَانَ فِى كَبَد} يُقرر أن من الحق أن يَشُقَّ المؤمن طريقه في الدنيا وهو موقن بأنها عقبات بين يديه، وأنَ يُوطن نفسه على اقتحامها وتكلف صعودها شأنَ السّالكين بيقين، الذين بلغتنا مقالاتهم، وهم مدد السير ومنارات الطريق، يقول أحدهم "إذا نَزل بك الإبتلاء فتيقن أنه ضيفٌ قِراهُ الصبر" قيل له 'إلى ثلاث؟'، قال "إلى سبع، وإنّا لَموسِعُونَ".

والحقيقة الثانية التي يرجع إليها اليقين فينبع منه الصبر تتصل بطبيعة الإيمان، لأن الإيمان أساسه الصلة بالله، الذي آمنت به وعرفته وأحببته، وأردتَ أن تُقيم الصلة به عبوديةً واحساناً، وكل الصِلات بدءاً من الصلات البشرية الإنسانية لابد من أن تتعرض لما يُثبت أن لها شأنا وأن بها إعتداداً، والأيام تؤكد صحة هذه الصلة من صداقة أو أخوة أو غيرها، أو تثبت أنها مجرد إسم بدون مسمى، لا حقيقة له، لابد أن تجيء الأحداث لتثبت حقيقة الصلات، وكذلكم الإيمان، الصلة بالله، لابد أن تخضع لإمتحان يُمحّصها، فإما كَشَف عن طيبها وصدقها، وإما كشف عن زيفها وكذبها، قال تعالى في مطلع سورة العنكبوت، سورة الإبتلاء، {الم، أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّه الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}.

ولا ريب في عقيدة المؤمن أن علم ربنا تبارك وتعالى محيط بظواهر الأمور وبواطنها، بجليها وخفيها، يعلم السر، وأخفى من السر، وهو حديث الصدر، وأما هذا الإمتحان فلن يأتي بجديد بالنسبة لعلم الله السابق المستوعب للبدايات والنهايات، غير أن عدل الله وعدالته وحكمه إقتضى فضلا ألا يُحاسب الناس على وفق علمه السابق بل على ما بدا منهم، لإقامة الحجة عليهم وبما يدفع إنكارهم، وبما يجعل أنفسهم تشهد عليهم وتنطق بصدق حكم الله فيهم، {وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ}، سائق يسوقها، وشاهد يشهد عليها، منفصلاً من ملك، أو مُتصلاً من جارحة.. {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.

على هتين الحقيقتين اليقينيتين يقوم الصبر، العلم بطبيعة الدنيا، والعلم بحقيقة الإيمان وحقيقة هذه الصلة، ومن أجْلِهما عُد الصبر في مطالب الدين الكبرى، بيد أن الإنسان الذي من عادته تجاهل الحقائق، {إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}، تراه يدهش للسّعَة اذا ذاقته، ويتبرأ من الألم اذا نوائبه مسته، ويقوم له من طبعه الجزوع ما يُبَغّض له الصبر ويجعله كريه المذاق عنده، فإذا أحرجه أمر أو صدمته خيبة ضاقت عليه الدنيا برَحبِها، وحاول أن يخرج من ضائقته بأسرع من لمح البصر، وربما حاول انتحاراً، وهي محاولة قَلّما تنجح أو تُخَلِّص، لأنها ضدٌّ لطبيعة الدين وطبيعة الدنيا معاً، ناقضة للطبيعتين، طبيعة الوجود الإستخلافي، وطبيعة إنتمائك الإيماني، وأولى بالمؤمن أن يُدرِّب نفسه على الإصطبار وطول الإنتظار، لينتصر على طبع الإستعجال، وليرتقي إلى مستوى ما أُهِّلَ له من كمال، مصداقا لقول ربنا جل في علاه، {خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ، سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ}، في إشارة إلى أن الإنسان يرتقي بيقين البينات، إلى مستوى يرتفع به عن ضعفه الذي هو طبع العجلة فيه.

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله، « مَن يتصَبّر يُصبَره الله » ، أي من يتكلف الصبر ويتحقق به ويرتقي في معارجه درجاً درجاً فإن الله يُحيله لكماله ويُصبَره ويُعينه بمدده، يقول صلى الله عليه وسلم، «ومَا أعطي أحدٌ عطاءاً خيراً وأوسع من الصبر».

إنَّ الصبر من معالم العظمة وشارات الكمال ودلائل سلطان النفس المطمئنة على ما حواليها، ولذلك كان إسم الله 'الصَّبَور' خاتمة أسمـــاء الله الحُسنى كمـــا وردت مدرجة مسرودة في حديث الترمذي، والسرّ في الـــختم، فهو جل في علاه يتمهل ولا يتعجـــل، «إنَّ الله لا يعجل كعجلة أحدكم» كما قال صلى الله عليه وسلم، يُبطئ بالعقاب إذا أسرع الناس بالجري معه، ويُرســل أقداره العَليّة وفق قَدره الدَّوّار لا على ضــيق الأعمار، وفي نطاق الزمن الرحب لا في حدود الرغبات الثائرة، قال تعالى {وَيَسْــتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ الله وَعْدَه}، ولكن متى؟ {وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْف سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ}.

الصبر فينا إذاً ينظر إلى ذلك الأفق العالي من كمال الله، فالمؤمن الصابر مؤتس بهذه القيمة العقدية إذ يعلم أن ربه مُسمى بهذا الإسم الفريد، الصبور، فمنه المدد فيه، وإليه المصير جزاءاً. والصــبر فينا أيضــا من عناصر الرجولة الكاملة، ولقد مدح الله به الأخيار من الهداة حين قال لنبيه {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدي والأَبْصَار}، أولي الأيدي كناية عن الصبر، ذوي الأيدي، الأشِدّاء، والأبصار أي اليقين {إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالصَةٍ ذكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عندَنَا لَمنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَار}، إنَّ أثقال الحياة وأعباءها وما يقتضيه التكليف من فعلٍ وكفٍّ أمور لا يُطيقها المهازيل، وفي الشاهد عندنا المحسوس، إذا كان بين يديك متاع ثقيل وتريد نقله، فإنك لا تستأجر له أطفالاً، أو مرضى، أو ضعافاً عجافاً، وإنما تنتقي له ذوي الكواهل الصّلبة، والمناكب الشِّداد، فكذلكم الحياة لا ينهض برسالتها الكبرى إلاَّ الكُمّلُ من الرجال، إلاَّ الصـــابرون، ومن ثَم كان نصـــيب الكبار من العناء والبلاء مكافئاً لما أوتوا من المواهب، ولما أدوا من أعمال، سُئل صلى الله عليه وسلم وعلى آله أيّ النّاس أشدُّ بلاءاً، فقال عليه السلام 'الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل'.

الحمد لله ذي الجلال والإكرام، الحمد لله المؤمن القدوس السلام، وعلى الصابرين بأجر ليس له ختـــام، وبَشِّرهم برحمـــات تترى إلى يوم القيام، والصلاة والسلام على ذي الخُلق العظيم والمقام الكريم، من خاطبه ربه ابتداءاً بقوله {اقْرَأْ بِاسْـمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ}، وبقوله من بعده {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ}، إقرأ باسم ربك بابٌ للكرم، بابٌ للتكريم، واصبر لحكم ربك بابٌ للرعاية والتوســيم. وعلى آلـه وعطرته الســـائرين على نهجه وطريقته ومن اقتفى أثرهم واســـتن بهداهم بالمغفرة والبسط العظيم.

لقد كرم اللّه المنتســبين للمكابدة، ونَوّه بأهل الكدح، بما يُطمئن بالهم ويُخفف آلامهم، قال صـــلى اللّه عليه وســـلم وعلى آله فيما رواه الإمام مســـلم «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ: كَمَثَلِ الْخَامَةِ من الزَّرْعِ، -أي ساق السنبلة، وهو أضعف السّوق- تُفيئُهَا الرِيحُ، تَصْرعُهَـــا مَرَّةً وَتَعْدلُهَـــا أُخْرَى حَتَّى يأتي أجله، وَمَثَلُ الْكَافرِ كَمَثَلِ الْأَرْزَةِ الْمُجْذِيَةِ عَلَى أَصُـولِهَا باقية لَا يُصـيبهَا شَيْء حَتَّى يَكُونَ انْجِعَافُهَا -اقتلاعها- مَرَّةً وَاحدَةً»

المؤمن السّـــارب بالحياة هدفٌ لمشـــاكلها الجَمّة، أما العاجز الهارب من ميدان الكدح فماذا يُصيبه ويلحقه؟ وهذا سر قول رسـول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فيما صَحّ عنه «مَنْ يُرِدِ اللّه به خَيْراً يُصِـبْ مِنْهُ» وقوله عليه السلام فيما خرجه الترمذي « إِنَّ الله إِذَا أَحَبَّ قَوْماً ابْتَلَاهُمْ. فَمَنْ رَضِيَ، فَلَهُ الرِضَـا. وَمَنْ سَـخِطَ، فَلَهُ السَّـخْطُ»، والمتعرض للأقدار يُدافعها وتُدافعه أرفع عند ربه درجـــات من المنهزم القابع بعيدا لا يخشى شيئا ولا يخشـــاه شيء، وما ادخره اللّه لأولئك المُعانين الصـــابرين يفوق ما ادخره لضروب عبـــادات أخرى بالثواب الجزيل، يقول سبحانه وتعالى {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}.

ومما ينبغي أن يَعيَه المؤمن بهذا الشـأن أن الإسلام بمثل هذه النصوص المُعزية لا يمجد الآلام ولا يمدح الشقاء ولا يُكرّم الأوجاع لأنها أهل للتكريم بما أنه دين يُسرٍ وشفاء، {يُرِيدُ اللّه بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}، ويقول تعـــالى {مَـــا يَفْعَلُ اللّه بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ}، إنما يُريد إيمانكم وشُكركم، فبالإيمان استقـــامة السرائر، وبالشكر صلاح الظاهر، وإذا استقـــام الظـاهر والبـاطن فـأي شيء يصـــنعـه اللّـه بعـذاب من هـذه حاله، إنه أهل لكرامته، {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا}، وخرّج أبو داوود عن سيدنا عبد اللّه بن عباس رضي اللّه عنه أن أخت عُقبة نذرت الحج ماشيةً، والتزمت وعاهدة، فقالت 'لله عليَّ أن أحُجّ راجلة'، وذكر عُقبة لرسـول اللّه أن أخته لا تُطيق ذلك، فقال عليه السـلام« إِنَّ اللّه لَغَنِيٌّ عن مشي أختك، فلتركب ولتهد بدنة -فَرطاً لنذرها-' »

إنما يحمد الإسلام لأهل البلوى وأصحاب المصاعب والمتاعب ثباتهم في المحن ورباطة جأشهم أمام الصعاب، وحسنَ يقينهم تمحيصا لدواخل أنفسهم، وهو أيضا إذ يذكر لهم الأسقام التي يُعانونها والضوائق التي يُواجهونها لا يعنيه منها إلاَّ ما تنطوي عليه من إمتحان يجب اجتيازه بيقين وتسليم ورضا، لا باسترخاء وتسخُّطٍ لأقدار اللّه الحكيمة.

عادَ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم رجلا مريضا بالحمى فدعا له بقوله«طهور، طهور إن شاء اللّه» فكره الرجل ذلك وقال، بل حمى تفور، وكره منه صلى اللّه عليه وسلم سُخطه لمُصابه فقال مُواسياً «إنَّ الحُمى تُذهب خطاياً بني آدم كما يُذهب الكير خَبَث الحديد».

ومن الخطأ في هذا الباب، بل ومن سوء الظن باللّه البر الرحيم، وسوءَ الظن من مداخل الشيطان ووساوسه الكبرى، المُسقط لصاحبها في بؤرة الكفر. من سوء الظن باللّه أن يحسب المسلم أن تَلاحق الأذى وتَجمّع المصائب لديه علامة على نسيان اللّه له وإبعاده من رحمته، وذلك بعيد عن الفهم الصحيح للإسلام الراشد، إن النصوص تؤكد أن المصاعب والآلام تتناسب معِ همم الرجال دنواً وعلواً، فقد قال صلى اللّه عليه وسلم يمدح ويُثني على سيدنا يوسف الصِديق قائلاً «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسَف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام» ، إنَّ نبي اللّه يوسف نبي تَربى في حضن الأنبياء الكرام، وتحدر من شجرة عريقة في الكرم والنبوءة، وكريماً على ربه إذ إجتباه للرسالة، أنظر إلى هذا الكريم ابن الكريم ابن الكريم كيف قضى مراحل حياته الأولى، يخرج من ضائقة ليَلاقي أخرى، فقد أمه طفلا، ثم تآمر عليه إخوته فاختطفوه من أحضان أبيه ورموا به في غيابة الجب ليلقى ذلك المصير المجهول، فتستنقذه قافلة مارة ليمتلكوه عبداً ثم ليبيعوه في السوق رقيقاً، بثمن بخس! دراهم معدودة، وليشتريه حاكم مصر، فما إن ينزل البلاط حتى يتعرض لدسائس المكر فيتَّهَم في عفته وهو الحصور، ومع ظهور براءته طُرح في السجن مع الجُناة، لا أيّاماً أو شهوراً بل سنين عدداً، ولو أن شخصا آخر نظر إلى ماضيه فوجده مُثْقلا بهذه الآلام لضاق بالأرض وتنكّر للسماء، بيد أن يوسف الصدّيق بقيَ متألق اليقين وراء جدران سجنه، يُذكّر باللّه، ما اهتزت صلته بربه، ما ارتابَ في شأن المُقدِّر أبداً، يُذكِّر باللّه من جَهِلَه، ويُبصّر بفضله من جَحده، قائلاً {أَرْبَابٌ مّتَفَرّقُونَ خَيرٌ أَمِ اللّه الْوَاحدُ الْقَهَّارُ}. ذلك شأن أولي الفضل من النّاس، لا يفقدون صفاء دينهم إذا فقدوا صفاء دُنياهم، ولا يهونون أمام أنفسهم بنكبة تحل بهم، بل إنهم يرون في توالي المحن منحاً، ورحمات إلهية تستوجب شكر الكبير المتعال، فقد قال صلى اللّه عليه وسلم فيما صحّ عنه «إنَّ العبد إذا سبقت له من اللّه منزلة -أي رفيعة عالية- فلم يبلغها بعمله ابتلاه في جسده أو ماله أو ولده، ثم صبر على ذلك حتى يُبلّغه المنزلة التي سبقت له من ربه»

اللّهم إنك سـألتنا من أنفسنا ما لا نملك إلا بك، اللّهم فأعطنا من أنفسنا ما يُرضيك عنا، هبنا من أنفســـنا ما يُرضـــيك عنا، رقنا إلى مقام رضـــاك، أعنا على تثبيت قدم التوجه إليك، آت نفوسنا تقواها وزكها، أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها.